بلوتو

قصة بقلم نبيل الهاشمي

نهض الدكتور غلوتس (*) وترك مخبره بعد مئة وثلاثة وثلاثين يوما من الابحاث المتواصلة ، فاتجه نحو نافذة مكتبه ليرى كيف نهطل الامطار . لكن الدكتور غلوتس لم يشعر بأي انفعال وهو يرى السماء تمطر على الصورة المحزنة .بل نزل بقبضته وضرب بها صدره المفعم بمسرة الكبرياء ، وعندما تزحلقت لهذا نظارته المعدنية الرفيعة على أنفه ، اصلح من شأنها وهو يلقي نظرة تهديد على حبال الماء التي كانت الغيوم تتابع ارسالها ، ثم دمدم بغضب ظاهر وقال : « اني انا من يأمرك الان . بوسعي ان احملك على الانقطاع . لكن من الافضل ان ادع هذه الترهات وشأنها ، فلدي اعمال مهمة حقا » . غير ان الدكتور غلوتس احس بالاهانة اذ رأى الامطار تواصل قرعها على زجاج نافذته وكأنها تتحداه ، فتوجه بوثبة غضب نحو الطاولة حيث كانت جاهزة زجاجة عصيره الكيميائي . تناولها وركب عليها الجهاز الخاص بالبخ . وعاد من جديد نحو النافذة . فتحها وتطلع بسخرية نحو الغيوم . « بفففففف » .. فعل العصير وهو يضيع في الهواء . والغريب ان الغيوم كفت في الحال عن البكاء وتلاشت تاركة المكان لشمس مشرقة اطلت فيرأس فبةبدت وكأنها من زجاج قد زرّق واحسن تنظيفه . حملق الدكتور غلوتس بالشمس مسرورا ، وبما انه كان على اقتناع بأنها تشكوه ، هز رأسه بحنان وكأنه يقول « العفو ، لا شيء من الواجب » . ثم انه فرك يديه وامر نفسه ، وقال : « والان الى العمل » .

« احس ببعض الوهن » ، دمدم الدكتور غلوتس وهو يفحص بعض اشيائه في المخبر ، ثم اردف : « ترى ، ما السبب ؟ » . واجاب في الحال : « حسنا ، لنطرد هذا الوهن » . قالها ثم فتح الزجاجة المذكورة ، وحملها الى تحت أنفه وعب من رحيقها ما تسمح به الشمة. وفي الحال تقريبا استعاد كل نشاطه الذي دعمه خلال كل ابحاثه السابقة .

بيد ان الدكتور غلوتس كان يشعر ببعض الشك بفعالية عصيره الكيميائي النامة . وهكذا فانه قعد مدة مئتين وسبعة وثمانين يوما ليكمل اختراعه . اما نيته فكانت الوصول الى ايجاد عصير كيميائي يفلح في فعل أي امر مهما كان . وكان هذا هو الشرط المطلوب للمشاركة في المسابقة التي اعلن عنها رئيس الدولة من اجل تنظيم المجلس الاعلى للسياسة العلمية . ويجب ان نذكر هنا ان السياسة كانت تشمل ايام الدكتور غلوتس جميع مرافق الحياة ، وليس الحياة الانسانية فحسب، بل كل الحياة ، الحياة في الكون . ولهذا فانهم كانوا يكتبون كلمة « السياسة » بشكل بارز دائما . لكن المسابقة لم تكن تنص بالطبع على أن يكون هذا « المبدع » زجاجة من العصير الكيميائي الذي يتوالد من تلقاء نفسه ولا ينفد ابدا . لا بل ان هناك فقرة في المسابقة تخصص نفقات هائلة لاجهزة كاملة تقام على اراض واسعة وضعت خصيصا تحت تصرف المتسابقين . غير أن الدكتور غلوتس كان هو الوحيد الذي سخر من تلك الفقرة ومن جميع الخيرات التي كانت تنعم بها ، وعهد بامر نفسه الى عبقريته والى عبقريته وحسب ، وكانت ثقته بهـا عظيمة لا تحدها حدود .

بعد ان مرت تلك الايام ، ومرت تلك الليالي التي صرفها الدكتور غلوتس في عمل دقيق وهو يفكر ويفكر ، يحك رأسه ، يلوح بيديه في الفضاء ، يضرب بقبضته على الطاولة ، يتثاءب من حين لاخر ، لكن بصورة نادرة جدا ، بعدها ، نهض الدكتور غلوتس وذهب من جديد نحو النافذة . وبما ان السماء لم تكن تمطر في حينها ، بل كانت هناك على العكس من ذلك شمس رائعة ، فان الدكتور غلوتس حملق في هذه بحنق وعاد ليتناول زجاجته . ضغط على جهاز البخ بعض الشيء و « بفففف » ، ثم تقدمت غيوم كثيفة وغابت الشمس في الحال . شعر الدكتور غلوتس بالارتياح . لكنه ما ان فرك يديه مسرورا ونظر الى الشارع في الاسفل ، حتى رأى عجوزا تمشي ببطء شديد وهي تستند الى عكازها . ولم يتردد الدكتور غلوتس لحظة واحدة . ضغط من جديد على زجاجته ، فاستقام ظهر العجوز في الحال ، وبدأت تجري ، وهي تلتفت يمنة ويسرة ، مدهوشة لما جرى . وتابعها الدكتور غلوتس برهة بنظرة ، ثم عاد لامباليا الى مخبره . عندما رأى مذكرته على الطاولة وتصفحها قليلا لاحظ ان الغد هو آخر موعد لتقديم طلب المسابقة مرفقا بتقرير عن نتائج الابحاث . لذلك فان الدكتور غلوتس سارع وصب العصير الكيميائي في قارورة أنيقة وذهب في الصباح التالي بسرعة بالغة الى قصر المسابقات . قدم كل المواد المطلوبة واختلط ببقية المتسابقين وهو يحاول التقاط بعض الكلمات حول نتائج الابحاث التي قاموا بها . ولم يمض وقت طويل قبل ان يتأكد الدكتور غلوتس ان أيا من الاختراعات الاخرى لم يبلغ جزءا ضئيلا من النتيجة التي توصل هو اليها . بعد ساعات قليلة بدأ الآذن ينادي المتسابقين وفق تسلسل الاحرف الابجدية لاسمائهم ليدخلوا في

(*) اصل القصة مكتوب باللغة الايطالية .

الاجتماع العلمي مع رئيس الدولة .

عندما حل دور الدكتور غلوتس ، حاول هذا ان يصلح من شأنه ودخل وبه شيء من الهيبة ، بينما كان قلبه يقرع سرورا وخوفا . لكن التهاني الحارة والاهتمام الذي كان للغرابة صادقا والتي اعرب عنها كلها رئيس الدولة ، هدأت من حال الدكتور غلوتس ، لا بل انهـا جعلته يختال بعض الشيء ، حتى انه شعر في الحال انه اهم من رئيس الدولة بالذات . بيد انها لحظات ضعف انساني ما لبثت ان تلاشت في الحال ، خاصة وان كلا منهما اخذ محله ، الرئيس جلس في محل الرئيس والدكتور غلوتس في محل الضيوف من المواطنين العاديين .

لم يهدر الرئيس كثيرا من الوقت بل انتقل في الحال الى الاسئلة وبه فضول عظيم : « لكن هل هو صحيح ، حقا ، بالفعل ، كل مـا كتبته في تقريرك ؟ » . غير ان الدكتور غلوتس لم يجب بل ابتسم ابتسامة فيها شيء من التهكم وشيء من الكبرياء وهو يهز برأسه ، ثم سحب من احدى جيوبه القارورة ووضعها على طاولة الرئيس بحركة واثقة فيها نوع من التحدي الودي . اخذ هذا القارورة بيده وشرع يتأملها بدهشة وشك وسرور . ثم انه سأل من جديد ، وبصورة تكاد تكون آلية ، وهو ذاهل بعض الشيء : « لكنه .. يبدع .. كل شيء.؟» هز الدكتور غلوتس رأسه مرات متتالية مؤكدا الامر بسرور كان يتفاقم . ثم سأل الرئيس من جديد : « والتمردات ... التوترات .. هل .. هل يستطيع التحكم فيها ؟ » . « ان بخة منه تهدىء حتى الكوارث الطبيعية : من زلازل ، وبراكين ، وفيضانات ، وعواصف ، وكل ما هنالك منها . ان هذا العصير تأثيرا غريبا لا يمكن لاي شيء ان يستعصي عليه ، وخاصة وانه يذهب الى جذر الظاهرة ليصححه وفقا لرغبة من يأمر العصير . وقد تأملت كثيرا حول امر ... » ، وواصل الدكتور غلوتس حديثه بعفوية وتنطع ضايقا فضول الرئيس المفترس . لهذا فقد قاطع حديث محدثه وساله سؤالا هو على ثقة من جوابه : « اسمع ، وهل بوسع عصيرك هذا ان يحول تيارات الرأي..» لكن الدكتور غلوتس اجاب من غير ان يسمع بقية السؤال ، وقال : « .. العام ، السياسي ، الفكري ، بل وحتى الرأي الشعري . يمكنه ايضا ان يغير طرق التفكير واشكاله ، صور الخيال ، والتصورات البصرية للعالم الفيزيائي . كما قلت لك ، انه عصير يتوجه الى جذر الظاهرة ويعدل منه وفق رغبة من يستعمله . يكفي ان يتعلم المرء كيف يوجهه » . وسأل الرئيس : « والابحاث .. » ، فاجاب الدكتور غلوتس بسرعة : « الابحاث الفضائية .. هيه !. طبعا ، طبعا .. » .

« اتفقنا ، هذا جيد . اعتقد اني سأعينك رئيسا للمجلس الاعلى. انك تستحق هذا ، تستحقه بالفعل . الان وداعا ، وداعا . سيرافقك سائقي حتى بيتك ، وبسيارة رئاسة الدولة » . وبعد تجربة شكلية للعصير ، نهض الرئيس وحيا الدكتور غلونس الذي انحنى انحناءات كبيرة ، وكأنه روبوت اديـر محركه ، شد على يـد الرئيس ،عصر من وجهه تعبيرا يدور بين الود المرائي والابتسامة الصادقة ، ثم خـرج بخطوات تكاد تكون عسكرية ، لانه حار كيف يصرف النشاط الـذي بدأ يغلي في خلايا جسمه .

ما ان وصل الى البيت حتى استقبلته القبل والعناق ، من زوجته من اولاده ، من اقربائه ، ومن اصدقائه ، وكانوا قد سمعوا الخبر ذاع في الحال في انحاء الكوكب الارضي وجاؤوا للتهنئة . ما ان رأى الدكتور غلوتس زوجته حتى ادهشه انتفاخ بطنها ، لكنها ابتسمت حالا وقالت بدلال : « انه اختراعك ، المبدع ، يا عزيزي » . « طبعا » ، اجاب الدكتور غلوتس وقد سر لجواب زوجته . « الا ترين آياه ؟ » قالت الزوجة . وفي الحال سحب الدكتور غلوتس زجاجة صغيـرة احتفظ بها لنفسه ، وعرضها أمام زوجته التي بدأت تتأملهـا باعجاب ، كما بدأ يتأملها باعجاب جميع الحاضرين .

لكن الدكتور غلوتس فوجىء بالريح تفتح بعنف بالغ نافـذة الصالون حيث كان يروي امام المعجبين مراحل ابحاثه ، ثم انه فوجىء اكثر عندما سمع زوجته تعطس رغم ان الريح هدأت بفعل بخة مـن عصيره . قالت الزوجة : « لا بد انها الانفلونزا ، يقولون انها وصلت البلاد » . كل هذا من غير ان تفلح بخة اخرى من عصير الدكتـور غلوتس في ايقاف تعطيس الزوجة المتواصل . لكن دهشة المفاجـأة تحولت في الحال الى قلق عندما بدأ هو بالذات يعطس . ضغـط الدكتور غلوتس على الزجاجة ، ثم ضغط عليها من جديد من غيـر ان يتوصل لاي نتيجة . في النهاية بلغ حنق الدكتور غلوتس حدا كبيرا ، فنزع جهاز البخ عن زجاجة العصير الكيميائي ، وبدأ يصب السائل بشراسة . وما من نتيجة . بل ان التعطيس زاد وبدأ جميع الحضور يلمسون الجباه بأيديهم ليقدروا ما وسعهم التقدير درجة الحرارة التي اعترتهم كلهم على حين غفلة . وقال الدكتور غلوتس بصوت واهن فيه كثير من القلق : « انه مجرد زكام » . لكن احد الحضور سأل : « مجرد زكام ، واختراعك المبدع ، اين هو ؟ » . فاجاب الدكتور غلوتس : « هدوءا ، هدوءا ، لنجرب من جديد » ، بينما الغضب والاحتداد والقنوط تستولي عليه بالفعل ، ثم انـه قلب الزجاجة كلها رأسا على عقب وهدر محتوياتها في الهواء . لكن حدقتي الدكتور غلوتس اتسعتا دهشة ورعبا عندما رأى ان عصيره يفور مثلما يفور الماء عندما يغلي . اصابته أزمة حادة ووقع على الارض وهو يشرح في هذيانه : « لا بد انها فيروسات غريبة حيدت مفعول العصير عندما تلامست مع صيغة (س ز) ، التي يحتويها هـذا العصير ... » . لكن احدا لم يسمع ما كان الدكتور غلوتس يقوله في هذيانه لان اصوات التعطيس كانت صاخبة . وخرج الجميع مـن البيت وهم على ثقة بان الهواء الصافي سيكون علاجا فعالا لهذا الزكام المفاجىء والغريب . وبقي الدكتور غلوتس وحده ممددا على الارض ، متخشبا ، وتائها في رؤاه العلمية .

دمشـق — نبيل رضا مهايني

مؤلفـات هربرت ماركوز

ق.ل.

- الانسان ذو البعد الواحد ٤٠٠
  ترجمة جورج طرابيشي
- نحو التحرر (فيماوراءالانسان ذي البعد الواحد) ٢٠٠
  ترجمة ادوار الخراط
- فلسفة النفي ٥٠٠
  ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد
- الحب والحضارة ٦٠٠
  ترجمة مطاع صفدي

دار الآداب ص . ب ٤١٢٣ بيروت